مقتل شـــاعر...

للأستاذ على الطنطاوى

أفاق « هُدْبة بن خَشْرَم » وما يدرى أصبح أم مساء ، وما يعلم من أمر الحياة شيئاً .. ولقد غَبَر عليه سبعة أعوام ما رأى فيها وضح النهار ، ولا اجتلى صفحة السماء . كأنما هو نصف حىّ ، وكأن حياته « مختصر حياة » . . فالسنوات السبع[1] بنعيمها وبؤسها ، وليلها ونهارها ، ليلة واحدة ، طالت وامتدت ، ثم لا يكون صبحها إلاّ الموت . . والدنيا على رَحْبها وسَعَتها ، وجمالها وجلالها ، غرفة ضيّقة فيها أكثر معانى القبر . . . وما بعدها إلا القبر !

ونظر يميناً ، ونظر شمالاً ، وجعل ينفض المكان بعينه ، فلا يبصر إلاّ الظلام ، وحاول النهوض فجذبته الى الأرض سلاسل غليظة ، شدّوه بها الى حَلَق متينة . . .

***

سمع صَلْصَلَة الحديد فى عنقه ويديه ، فعاد الى نفسه يذكر ما كان من أمره ، ويستعيد قصته كلها ، ويرى كيف . . .

. . . دخلت عليه أخته فاطمة ، وبيدها المِجْمر ، فقال لها :

— ويحكِ ما هذا ؟

— هذا لك ! قم استجمر ، إنما أنت من النساء !

— وما ذاك لا أمّ لكِ ؟

— فقالت : أنت قابع فى كِسْر الخيمة كما تقبع العجوز ، وهذا زيادة يتغزّل فى أختك ، ويرسل فيها الشعر يفضحها به فى العرب

— ماذا ؟ زيادة ؟

— زيادة ! نعم . زيادة يهتك نساءك ، ويَفْرى عرضك . . .

فوثب هُدبة يقول : زيادة يهتك نسائى ، ويفرى عرضى ؟ . . والله لأجأنّه بهذا السيف . فقامت اليه تعنّفه وتلومه :

— والله ما علمت أنك مجنون إلاّ الساعة ! أتعمدُ الى ابن عمك فتقتله ، فتحقق ما قاله فىّ ، وتنصرف بسبّة الدهر ؟ قل فى أخته « أم قاسم » مثل ما قال الخبيث فى أختك ، فاذا بدأك بالشرّ ، جزيته به شرّاً

— إذن لأجعلنّها والله أحدوثة الأبد

— شأنك بها يومئذ . . .

***

وكان ما ظنّت فاطمة فبيّت زيادة هدبة وأهل بيته ، وهم عنه غافلون ، فضرب هدبة على ساعده ، وشجّ أباه خشرماً . وانصرف يقول :

شججنا خشرماً فى الرأس عشراً ووقفنا هديبة إذ أتانا

فثارت ثائرة هدبة ، فتقلد سيفه وانصرف لا يلوى على شىء ، حتى وجد زيادة فجلّله به فقتله . ولما سكت عنه الغضب ، ورأى أنه قتل رجلاً مسلماً ندم وجعل يلوم نفسه ويقرّعها :

— ويل لى ! ماذا صنعت ؟ أعمدت الى ابن عمى فقتلته ، ومن قتل نفساً مؤمنة فكأنما قتل الناس جميعاً . أفعلتها من أجل هفوة لاتقدّم ولاتؤخر : يانفسُ ما أضلك وأشقاك ! ألم يردعك دين ؟ ألم يحجزك إيمان ؟ ألم تَنْهَه من عَزْمِك جهنّم ؟ ماذا تقولين لربك غداً ؟ وانطلق يقول لها هذا وشبهه حتى طلع الفجر . . .

وكان الغد ، فاذا عبد الرحمن «اخوزيادة» عند أمير المدينة سعيد بن العاص يشكو اليه قتل أخيه . وأحضر سعيد هدبة ، فلم ينكر ولم يكذب . . . وكره سعيد أن يقتل هدبة ، وهو الشاعر المتقدم ، لسان بادية الحجاز ، وهو أخو ثلاثة كلهم شاعر : حوط وسيحان والواسع . . . وهو الفارس الكريم المحبوب : . ولم يكن يستطيع أن يعفو أو يغيرّ حكم الله

فبعث بهما سعيد الى « معاوية »

وكان معاوية ضنيناً بهذا الشاعر أن يعرضه على القتل ، ولكنّ حكم الله فوق هوى أمير المؤمنين . . . فلما مثلا بين يديه ، قال عبد الرحمن :

— أشكو اليك يا أمير المؤمنين مظلمتى ، وقتــل أخى ، وترويع نسوتى !

فقال معاوية :

— يا هدبة ! قُلْ

— فقال هدبة « مرتجلاً » :

ألا يالقومى للنوائب والدهر وللمرء يردى نفسه وهو لا يدرى
وللأرض كم من صالح قد تلمأت عليــه فوارته بلماعة قفر
فلا تتق ذا هيبــة لجلاله ولا ذا ضياع هنّ يتركن للفقر

حتى قال :

رُمينا فرامينا فصادف رمينا منايا رجال فى كتاب وفى قدر

(١) حبسه معاوية سبع سنين فى المدينة لسبب ستعرفه ، وقيل بل حبسه ثلاثاً فقط « الأغانى »

فلما رأينا أنما هي ضربة من السيف أو إغضاء عين على وتر
عمدنا لأمر لا يعيرّ والدى خزايته ولا يُسب به قبرى
وأنت أمير المؤمنين فما لنا وراءك من معدى ولا عنك من قصر
فان تك فى أموالنا لم نضق بها ذراعاً ، وإن صبر فنصبر للصبر

فقال معاوية :

— أراك أقررت بقتلك صاحبهم

وكره أن يقتله ، وما كان له أن يعفو ، ففكر ثم قال لعبد الرحمن :

— هل لزيادة ولد ؟

— قال : نعم ، المسور ، وهو غلام صغير لم يبلغ ، وأنا عمه وولىّ دم أبيه

— قال : إنك لا تؤمَنُ على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق . والمسوّر أحق بدم أبيه ، فليردّ هدبة الى المدينة ، فليحبس بها حتى يرشد المسور فيكون له حكمه فى القاتل

وتنبه هدبة وسمع مرّة ثانية صَلْصَلَة الحديد ، وأحسّ بدنوّ الساعة التى يقف فيها على شفير الهاوية فاما الى موت ، وإما الى حياة . فجزع واضطرب ، ثم أدركه من نعمة الايمان مايدرك كل مؤمن حاق به خطر ، فسكن واطمأن ، وراح يهدىء نفسه ويسكنها . . . ويقول :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فَرَج قريبُ
فيأمن خائف ، ويفكّ عانٍ ويأتى أهله النائى الغريب[1]

* * *

فلما كان صباح تلك الليلة ، لم يسمع فى المدينة إلا نبأ واحد ، يجرى على كل لسان ، ويلج كل أذن :

— اليوم يوم هدبة — اليوم يسلم الى المسور بن زيادة ليحكم فيه — إنه سيقتله — بل سيعفو — لن يعفو عنه — لن يقتله . . . .

وخرج الناس أرسالاً الى الحرّة ، فلم يُر مثله من يوم ، خلت فيه المدينة إلا من شيخ فانٍ أو امرأة عاجزة ، وانتقلت بأهلها الى الحرّة . . . .

وما هى حتى جيء بالرجل وهو مثقل بالحديد ، وقد صدىء عليه وحزّ فى جسمه ، وبليت من دونه ثيابه . فماج الناس وازدحموا بالمناكب ، واشرأبت الأعناق ، وارتاع النساء وأجفلن وعرتهن رعدة . . . ثم فاضت منهن العيون شفقة ورحمة

ثم انتهى به الى الحرّة ، وقد جلس فيها الأمير سعيد بن العاص ووجهاء المدينة ، وأقيم المسور ليقول كلمته . وقام اليه رسول معاوية فعرض عليه عشر ديات من خالص مال أمير المؤمنين ، فأباها ، فعرض عليه سعيد ووجهاء المدينة أضعافها فأبى الا قتل هدبة . . .

فاصفرت وجوه الناس ، ووددوا لو حالوا بالقوّة بين هدبة وبين القتل ، ولكن حجزهم احترام الحق ، ومنعهم هيبة الدين فلبثوا صامتين كأن على رءوسهم الطير ، ونظروا الى هدبة . فرفع رأسه وأنشد بصوت شجىّ رائع :

ألا عللانى قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح
وقبل غدٍ يا لهف قلبى من غدٍ إذا راح أصحابى ولست برائح
إذا راح أصحابى تفيض عيونهم وغودرت فى لحدٍ على صفائحى
يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما القبر فى الأرض الفضاء بصالح

فضجّ النسوة بالبكاء ، وماج الناس ، فأشار اليهم فأسكتهم ، وخاطب امرأته وكانت من أجمل النساء وكان أجدع :

أقلىّ على اللوم يا أمّ بوزعا ولا تجزعى مما أصاب فأوجعا
ولا تنكحى إن فرّق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأزرعا
ضروباً بلحييه على عظم زوره إذا الناس هشّوا للفعال تقنّعا
وحلى بذى أكرومة وحمية وصبر اذا ما الدهر عضّ فأسرعا

وعَرَى الناس صمت عميق ، وأقبلوا ينظرون بماذا تجيب هذه المرأة : أتبقى وهى الشابة الجميلة الفتّانة لرجل أجدع هو الساعة ميّت ، وتقيم على عهده ، وتحرّم على نفسها من أجله الرجال ، أم هى تعده وعتّيه ، حتى اذا مات انطلقت فتزوجت ؟ وجعلوا يتهامسون ، ويتقولون . . .

أما هى ، فلم يكن منها إلا أن مالت الى رجل ، فسألته شيئاً ، ثم أرسلت ملحفتها على وجهها هُنَيَّة ، ثم عادت فاذا . . . فاذا هى قد جدعت أنفها ، وقطعت شفتيها . . .

وقالت : ياهدبة ! أترانى متزوجة بعد ماترى ؟.. فقال : لا ، الآن طاب الموت ، ثم استأذن فى ركعتين فصلاّها وخفف ، ثم التفت الى من حضر ، وقال : والله لولا أن يظن بى الجزع لأطلتهما ، فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما

ثم تقدم من المسوّر وقال :

أثبت قدميك ، وأجد الضربة ، فانى قد أيتمتك صغيراً وأرملت أمّك شابة . . .

على الطنطاوى

(١) من أبيات له